سلسلة مشاهير أعلام الهند (١)

نبذة من حياة

الإمام الكبير شيخ الإسلام سُلطان الهند

معين الدين الجشتي الأجميري

رضي الله تعالى عنه (المتوفى: ٦٣٣هـ)

المأخوذة من كتاب

بركات الصوفية في شبه القارة الهندية

تأليف

الأستاذ الدكتور أنوار أحمد خانْ البغدادي

حفظه الله

مجمع الإمام أحمد رضا

دار الملك

DAR AL-MALIK

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سلطان الهند الشيخ معين الدين الجشتي الأجميري وخدماته الدعوية

مولده ونشأته:

هو شيخ الشيوخ، ملك المشايخ، سلطان التاركين، قدوة الواصلين، وقطب الأولياء، وشيخ الإسلام، ونائب رسول الله ﷺ في الهند، العارف بالله، الواصل إلى مدارج السلوك والمعرفة، العابد الزاهد، السخي الكريم، معين الملة والدين، سيدنا ومرشدنا مولانا السيد الشيخ معين الدين الجشتي السجزي ثم الأجميري –رحمه الله رحمةً واسعةً–، وأفاض علينا ببركاته وفيوضه دائمًا أبدًا.

هو أحد الأعلام النابهين من أهل السنة والجماعة، وفردٌ من رجال التصوف البارزين، الجشتيّ مشربا، والحنفيّ مذهبا، كما عدّه المولوي فقير محمد الجهلمي من جملة الأحناف في كتابه "حدائق الحنفية"[١].

أمّا نسبه فقد ذكر صاحب "مرأة الأسرار" نقلا عن "أنيس الأرواح" وغيره من الكتب أنّ الشيخ من السلالة الحُسينية، يتصل بسيدنا رسول الله ﷺ، وذلك على النحو التالي:

هو الشيخ الخواجة معين الدين بن السيد غياث الدين حسن بن السيد طاهر

(١) ينظر: "حدائق الحنفية"، صـ: ٢٧٧.

حسن بن السيد عبد العزيز بن السيد إبراهيم بن الإمام علي موسى رضا بن الإمام موسى كاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد باقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام حسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرّم الله تعالى وجوههم الكريمة-[٢].

وجاء في "خزينة الأصفياء" باختلاف يسير، وهو: معين الدين بن غياث الدين بن كمال الدين بن أحمد حسين، بن طاهر بن عبد العزيز ...[٣].

وُلِد في ٥٣٧هـ في "سجستان"[٤] التي تطلق عليها العرب "السجز"، وإليها يُنسب الشيخ فيقال: "السجزي"[٥]، وقد يلفظ بعض الناس "السنجري" خطأً، و"سجستان" جزء من "خراسان"، وهي التي تقع أكثرها الآن في "إيران"، وجزء منها في "أفغانستان"[٦].

ولم يبلغ من عمره ١٥ سنة حتى توفي أبوه، وترك له بستانًا ورحىً فاسترزق بهما مدة[٧].

ويذكر بعضُ المترجمين له قصةً لانصرافه إلى التعليم الديني والتصوف الروحاني أنه كان يوما في البستان الذي ورثه من أبيه، إذ جاءه رجلٌ من الصالحين،

---

(٢) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٢.

(٣) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٢.

(٤) ينظر: "نزهة الخواطر"، ١/ ٩١.

(٥) ينظر: "آب كوثر"، صـ: ١٩٨ – ١٩٩.

(٦) ينظر: "تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٢٤.

(٧) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٣. و"نزهة الخواطر"، ١/ ٩١.

وهو الشيخ إبراهيم القندوزي، فرحّب به ترحيبا حارًّا، وقدّمَ إليه عنقودةً من العنب فتناولها الضيف الوارد الشيخ القندوزي، وأخرج من جيبِه شيئا وأعطاه بعد أن مضغَه، وما أن أكلَه الشّيخ السجزي حتى تغيّرت دنياه وتجلّت له الآفاق بالأنوار الإلهية، فباعَ البستان ووزّع ثمنه في الفقراء، وترك الدّنيا وما فيها من مغرياتٍ، وخرج بحثا عن المعرفة بالله، فوصل إلى سمرقند حيث حفظ القرآن الكريم، واشتغل بتعلّم العلوم الظاهرة[٨].

يغضّ صاحب "نزهة الخواطر" عن هذا التفصيل إلا أنه يشير إلى التحوّل من مسار الدنيا إلى مسار العلم والسلوك، فيقول: "ثم أخذته الجذبة الربّانية، فترك ما له من العُروض والعَقار وسافر إلى "سمرقند"، فحفظ القرآن الكريم وقرأ العلم حيثما أمكن له، ثم سافر إلى بلاد أخرى"[٩].

بيعته وسلوكه إلى مدارج التصوف:

خرج الشيخ السجزي من "سمرقند" واتّجه إلى العراق، وفي طريقه إليه التقى بحضرة الشيخ الخواجه عثمان الهاروني، في منطقة "هرون" من ضواحي "نيسافور"، فبايعَ على يده الشريفة، ولازمه مدةً طويلةً[١٠].

جاء في "سير الأولياء" و"أخبار الأخيار": أن الشيخ معين الدين الجشتي

---

(٨) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٣ – ٥٩٤. "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٢.

(٩) ينظر: "نزهة الخواطر"، ١/ ٩١.

(١٠) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٢ – ٦٣ و"نزهة الخواطر"، ١/ ٩١، و"آب كوثر"، صـ: ١٩٨–١٩٩.

قضى عشرين سنةً في صحبة الشيخ الخواجه عثمان الهاروني،لا يفارقه في حضره ولا في سفره، يحمل على رأسه متاعه، ويقوم بخدمته دون كَلٍّ وملل، وبكُلِّ جهد وإخلاص حتى صبّ عليه كل ما كان لديه من علم وعرفان وشرّفه بالإجازة والخلافة"[١١].

وهذه السّلسلة الطيّبة التي اتصل بها السجزي ترتبط بالشيخ الحسن البصري، وهي التي تعرف بالجشتية نسبةً إلى الشيخ الخواجه إسحاق الشامي من سكان محافظة "جشت" التي تقع في "خراسان" على قربٍ من "هرات"[١٢].

استفاد الشيخ السجزي أثناء ملازمته للشيخ الخواجه عثمان الهاروني كثيرا في السلوك إلى مدارج التصوف. وبعد تكميل المدارج يمّم نحو العراق، وفي الطريق إليه التقى بحضرة الشيخ نجم الدين كبرى، (ت: ٦١٨هـ)، كما التقى بعديدٍ من المشايخ الكرام، وحصل على الفيوض والبركات في عِدّة بلادٍ من الوطن الإسلامي من سيوستان، ودمشق، وأوش، وبدخشان، وبغداد، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وغيرها فقد التقى بحضرة الشيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١هـ) في جيلان، ومعه وصل إلى بغداد، حيث تشرّف بلقاء عديد من كبار المشايخ أمثال الشيخ ضياء الدين، والشيخ شهاب الدين السهروردي، (ت: ٦٣٢هـ) والشيخ أوحد الدين الكرماني وغيرهم[١٣].

---

(١١) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٢. و"أخبار الأخيار"، ص: ٢٩.

(١٢) ينظر: "بزم صوفية"، للشيخ صباح الدين عبد الرحمن، مطبعة المعارف، أعظم جراه، الهند، صـ: ٤٩ – ٥٠.

(١٣) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٣.

ومن بغداد وصل إلى همدان حيث تشرف بزيارة الخواجه أبي يوسف الهمداني، واستفاد منه، ثم خرج إلى تبريز، حيث التقى بحضرة الشيخ أبي سعيد التبريزي، واستفاد بصحبته، ومنها وصل إلى أصبهان، حيث تشرف بصحبة الشيخ محمود الأصفهاني[١٤].

هكذا نراه ينتقل من بلد إلى بلد آخر، ليرى فيه من نعم الله تعالى ويذكره ويلتقي بأهل الذكر وينتفع بهم، ويدرج مدارك السلوك، حتى ألقى عصا ترحاله في إحدى المدن الهندية بلدة "أجمير"، التي جعلها قدومُه الميمون إليها مقدّسةً وشريفةً[١٥].

زواجه وأولاده:

توجّه الشيخ إلى الهند فاختار "أجمير" موطنا له، وأثناء إقامته فيها تزوّج إمرأتين، إحداها السيدة عصمة الله بنت السيد وجيه الدين المشهدي، حاكم أجمير، رُزق منها ثلاث أولاد ذكور، وهم: حضرة السيد أبي سعيد، والسيد فخر الدين، وحضرة السيد حسام الدين. وأخراها السيدة أمة الله،وهي بنت ملك هندوسي، قُتل أبوها في إحدى المعارك مع المسلمين، وقبضت عليها، وأهديت إلى الشيخ الأجميري، فأسلمت وتزوّجها، فكانت من خيرهن صورة وسيرة، رزق منها ثلاثة أولاد، منهم ابنان الذان توفي صغارا، وبنت سميت بـ"حافظة جمال"، وهي التي ركز

(١٤) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٣.

(١٥) ينظر: المصدر نفسه، ٢/ ٦٣ - ٦٦.

عليه الشيخ بتربيته الروحانية فأصبحت داعية إلى الله، وبجهودها نشطت الدعوة إلى الله في نسوة تلك المناطق، فمنهن من ذقن بحلاوة الإيمان، ومنهن مَن بلغن إلى ذروة المجد والكمال(١٦).

خلفاؤه:

لقد كثر الذين أسلموا وتابوا على يده، وأخذوا بيعته، كما كثر خلفاؤه، قائمتهم طويلة، منهم مثلا: خليفته في العاصمة الهنديّة دلهي، قطب الأقطاب حضرة الشّيخ الخواجه قطب الدين بختيار الكعكي، والشّيخ حميد الدين الناغوري، والشيخ حميد الدين الصوفي، والشّيخ وجيه الدّين، والشيخ برهان الدين بدو، والشيخ سليمان الغازي، وغيرهم، وممّا يذكر أنه أعطى خلافته ابنَه حضرةَ السيّد فخر الدين أيضا، كما منح بإجازة وخلافة الساحرَ الهندوسي "جوكي جي بال" الذي عارضه في بداية الأمر بسحره ولكنه أسلم أخيرا وحسن إسلامه، وتشرّف بصحبته وببركاته(١٧).

وجاء في "خزينة الأصفياء" أنهأجاز بالخلافة ابنتَه الفاضلة "حافظة جمال"(١٨)، التي مرَّ ذكرُها آنفًا، غير أنني أشك في هذا الخبر؛ إذْ لا يجوز للمرأة أن تتصدّر خلافة المشيخية، أما القيام بالدعوة إلى الله فهي ممّا يشترك فيها الرّجال والنساء، وربّما كان صاحب "خزينة الأصفياء" يريد ذلك.

---

(١٦) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٧٢ – ٧٣.

(١٧) ينظر: المصدر نفسه، ٢/ ٧٤.

(١٨) ينظر: المصدر السابق، ٢/ ٧٣.

من أوصافه:

كان عابدا ورعا تقيا زاهدا، لا ينام ليلا إلا قليلا، وكان يصلي الفجر من وضوء العشاء، وقد واظب على هذه العادة الميمونة نحو ستين سنة، وكان يكتفي بالقليل من الرزق، فكان يأكل خبزا مبلّلا بالماء كان قد مرّ عليه أسبوع، أما لباسه فكان مفليا بالرقاع رحمه الله[١٩].

وكان يختم القرآن مرّتين، مرة بالنهار ومرة بالليل. قضى حياته كلّها في حبّ الله ﷻ ورسوله ﷺ جامِعًا بين العلم والعمل، سالِكًا مدراك السلوك والمعرفة، حليمًا متواضعا وسخيّا كريما، يذكر أنه كان في زاويته مطبخ الخيرات للفقراء والمساكين، وكان يقول ناقلا عن شيخه الخواجه عثمان الهاروني: "مَن كان فيه ثلاث خصال يجعله الله من أوليائه: جود كالبحر، وتواضع كالأرض، وعطف كالشمس"[٢٠].

انتقاله إلى رحمة الله:

كانت وفاته يوم الإثنين في السادس من رجب المرجب سنة ٦٣٣هـ، وكان عمره آنذاك ٩٧ سنة، على القول المشهور، كما ذهبَ إليه الشيخ المحقق في "أخبار الأخيار"[٢١]، وكذا استخرج صاحبُ "سير الأقطاب" تاريخَ وفاته من كلمة "آفتاب ملك هند" سنة ٦٣٣هـ[٢٢].

---

(١٩) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦١ - ٦٢.

(٢٠) ينظر: "أخبار الأخيار"، صـ: ٢٩.

(٢١) ينظر: "أخبار الأخيار"، صـ: ٢٩.

(٢٢) ينظر: "سير الأقطاب"، صـ: ٤١.

وقال صاحب "خزينة الأصفياء" أنّ جميع مَن ترجموا له يتفقون على وفاته يوم الإثنين في ٦ من رحب المرجب عام ٦٣٣هـ[٢٣].

أمّا صاحب "بزم صوفية" فقد رجّح تاريخا آخر، فقال: إنْ وصل الشيخ إلى أجمير عام ٥٨٨هـ فهذا يعني أن وفاته كانت في ٦٢٧هـ، وعمره آنذاك تسعون سنةً، ومدة إقامته في أجمير ٣٩ سنة[٢٤].

وكذلك يتفق جمعُ مَن ترجموا له أنه ظهر على جبينه بعد وفاته منقوشا: "حبيب الله ماتَ في حبّ الله"[٢٥].

ومشهده في أجمير من ولاية "راجستهان" الهندية مشهور، حيث يرتاده المسلمون وغيرهم من الملل المختلفة طيلة الأعوام للتبرك والاستذكار، ممّا يدل على مكانته العظيمة في قلوب الناس من المسلمين وغيرهم.

من آثاره العلمية والروحانية:

لملفوظاته الثمينة وكلماته القيّمة ونصائحه الغالية مجموعة منشورة ومعروفة في أوساط العلماء، تسمّى بـ "دليل العارفين"، جمعَها ورتّبها أحد أقرب خلفائه قطب الإسلام الشيخ قطب الدين بختيار الكعكي، بدأها في ٥١٤هـ قبل قدومه الميمون إلى أرض الهند، وهي تشمل على ١٢ مجلسا، وكانت المجموعة قد ألفت

---

(٢٣) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٧٥.

(٢٤) ينظر: "بزم صوفية"، صـ: ٦٤.

(٢٥) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٥. و"أخبار الأخيار"، صـ: ٢٩. و"خزينة الأصفياء"، ٢/ ٧٥.

باللغة الفارسية ولكنها ترجمت بالأردية وتمّ نشرها[٢٦].

وتعدّ ملفوظات الشيخ السجزي بحرا من بحار المعارف فيه اللآلي والجواهر من العلوم والحكم وأسرار الطريقة والحقيقة والسلوك والمعرفة بالله والأوراد وغير ذلك.

وكثير من ملفوظاته وردت في كتب الأعلام والتراجم، فقد جاء في "سير الأولياء" أنه كان يقول: "من علامات المعرفة بالله أن يبتعد العبد عن الخلق ويلزم الصمت دوما"[٢٧].

وكان يقول إنه من علامة المحبّ الصادق أن يسلّمَ نفسه دائما لطاعة الله ﷻ وعليه أن يخاف دائما من أن يُطرد من جناب الله تعالى. ومن علامة الشقاوة أن يتلبّد بالمعاصي والذنوب ثمّ يرجو أن يكون عبدا مقرّبا عند الله[٢٨].

وقال: "مَن شاءَ أن ينجوَ من عذاب يوم القيامة فليقم بأفضل العبادات، قيل وما هي؟ قال: إغاثة الملهوفين، وقضاء حاجات البائسين، وإطعام الجائعين. وقال: من كانت فيه ثلاث خصال فاعلموا أنه من أولياء الله: جود كالبحر، وعطف كالشمس، وتواضع كالأرض"[٢٩].

---

(٢٦) ينظر: مقدمة الشيخ شمس البريلوي على كتاب "فوائد الفواد"، للشيخ الأمير علاء السنجري، طبعة دلهي، صـ: ٣١.

(٢٧) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٢ – ١٠٣.

(٢٨) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٢.

(٢٩) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٣.

الشيخ في معقل الهندوس أجمير الجبلية:

كانت تُعدّ "أجمير" بلدةً خطيرةً من الناحية الجغرافية والسياسيّة والدينيّة، أمّا الناحية الجغرافية فهي منطقة جبلية، تجاور دلهي عاصمة الهند، وللمجاورة شأنٌ ما ليس لغيره. وأمّا من الناحية السياسيّة فهي كانت بمثابة العاصمة، أو أهم منها؛ إذ إنّ الملك "بتهورا" الذي كان يحكم دلهي وأجمير كلتيهما، كان منها، ولهذا كانت هذه البلدة تحت عنايته الخاصة، مركزًا سياسيا(٣٠).

وأمّا من الناحية الدينية فكانت تُعدّ "أجمير" معقلا للهندوس؛ لأنها كانت موطنا لأغلب الطبقات العليا من "راجبوت" الذين من شأنهم أن يحكموا البلاد، حسب المعتقدات الهندوسية.

والطبقات العليا من الهندوس هي التي ترجع إليها الزعامة في المذهب الهندوسيّ لتمايز الطبقات والتفريق بينهم.

ومن العجيب أنّ هذا الشيء الذي كان فخرا للهندوسية، في نفس الوقت كان الشيء نفسه موطن ضعفٍ فيها، فقد استغلّها الدّعاة المسلمون بأنْ دعوا إلى المساواة ونبذ التمايز.

على كلٍّ اختار الشيخ هذه البلدة موطنا له مع خطورة شأنها ووعورة مسالكها، ليحوّلَها مركزا إسلاميا، ومقرًّا روحانيًّا، وقاعدةَ أمنٍ وسلامٍ ينطلق منها الإسلام لينتشر في ربوع الهند كلّها، فقد اجتاز الحدودَ الغربيّة ووصل إليها قبل أن يتمّ فتح الهند على يد الملك شهاب الدين الغوري.

---

(٣٠) ينظر: "تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٢٥.

هذا ما اتفق عليه المؤرخون لكنّهم اختلفوا في كيفية السفر وزمنه، فقد تضاربت الآراء، والذي أكّده أغلب المترجمين له هو أنه جاء إلى "أجمير" في زمن "بتهورا راي" ملك "أجمير"، جاء في "أخبار الأخيار" للشيخ المحقق عبد الحق المحدث الدهلوي أنّ الشيخ الجشتي قدم إلى "أجمير" في زمن "بتهورا راي"، واشتغل في العبادة [٣١].

وجاء في "مرآة الأسرار" أنّ الشيخ قدم من "غزني" إلى "لاهور"، ومن "لاهور" إلى "دهلي" التي كانت عاصمة الملك"بتهورا"[٣٢].

ويقول الشيخ ملّا عبدُ القادر البدايوني في "منتخب التواريخ": "تقدّم [شهابُ الدّين الغوري] نحو أجمير، وسيطرَ عليها، وكانت هي عاصمة "رائي بتهورا"، فغلب عليه وقبض على رجاله وجنوده، ويبدو من طريق آخر أنّ شيخ الشيوخ معين الدين الأجميري، الذي هو مرجع المشايخ العظام في الهند، ومرقده المبارك في أجمير، كان مع شهاب الدين الغوري، ولم يتمّ فتحُ أجمير إلا ببركات هذا القطب الرباني"[٣٣].

وجاء في "سير العارفين" أنّ الشيخ غادر "دهلي" إلى "أجمير" من ضوضاء الناس والازدحام، وكان "بتهورا" يحكم دهلي وأجمير، ولمّا وصل إلى أجمير وقف في طريقه رجال بتهورا ومنعوه من القيام فيها وبذلوا في ذلك جهودهم، ولما لم

(٣١) ينظر: "أخبار الأخيار"، صـ: ٢٨.

(٣٢) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٨.

(٣٣) ينظر: "منتخب التواريخ"، ١/ ٤٤.

يستطيعوا أن يتصدّوا له فجلبوا بالسّحرة من الهندوس ليغلبوا على الشيخ بسحرهم ويطردوه من "أجمير"، ومن أشهر هؤلاء السحرة "جوكي جي بال"، الذي لم يستطع الوقوف في وجه الشيخ فأسلم على يديه، وسمّاه الشيخ عبد الله وأعطاه خلافته[٣٤].

وجاء في "دليل العارفين" مختصرا أنّ الشيخ الأجميري كان يذكر صفات العارف؛ إذ بدأ يبكي، وقال: أنا أسافر إلى مكان حيث مدفني – يعني: أجمير – فودّع الجميع إلا الشيخ الخواجه بختيار الكعكي الذي أخذه في صحبته، ثم وصل إلى أجمير فأسلم على يديه أناس بلا عدد[٣٥].

وصرّح صاحب "خزينة الأصفياء" بأنه سافر من لاهور إلى دهلي وأقام بها مدة، ثم خرج منها إلى دار الخير "أجمير" في العاشر من محرّم الحرام سنة ٥٦١هـ، وأول من تاب فيها على يده هو المير السيد حسين، الذي كان شيعيا، ثمّ توافد عليه الناس وأكثرهم من غير المسلمين[٣٦].

ونقل صاحب "بزم صوفية" عن بعض المصادر أنه وصل إلى أجمير عام ٥٨٨هـ، حينما قدم الغوري إلى الهند في المرة الثانية[٣٧].

دوره الرائد في إشعال شموع الإسلام في الهند:

إنّ شيخ الشيوخ سلطان الهند سيدنا الخواجه ﵀ قد جُبِل على خدمة الإسلام

---

(٣٤) ينظر: "بزم صوفية"، للشيخ صباح الدين عبد الرحمن، مطبعة المعارف، أعظم جراه، الهند، صـ:٦٢.

(٣٥) ينظر: "بزم صوفية"، صـ:٥٢.

(٣٦) ينظر: "خزينة الأصفياء"، ٢/ ٦٦.

(٣٧) ينظر: "بزم صوفية"، صـ:٦٤.

ونشره، فكأنّه لم يُخلَق إلا لمهمّة الدّعوة والتبليغ؛ وذلك لأنه كان يملك نفسا مطمئنةً، وعريكةً إيمانيةً نهلت من مناهل الإسلام الصافيّة حتى أصبحت شخصيته متحلّيةً بالعلوم والمعارف، متزيّنةً بالأخلاق الحسنة، والصفات النبيلة، وفائزةً على مدارج عالية من المعرفة والسلوك، جذّابةً قويّةَ التأثير والتقريب، تستقطب القلوب، وتُميل النفوس.

فمن كانت صفاته هذه التي ذكرناها من الطبيعي أن ينجذب الناس إليه، وحقًّا فقد تهافَتَ الخلقُ عليه تهافُتَ الفراش على النور.

فضلا عن ذلك كان الشيخ قد فتحَ باب زاويته للناس على مصراعيه بلا تمييزٍ ولا تفريقٍ، يدخلُها الكفَرةُ المشركون أفواجا يتشرّفون بالإسلام، كما يقصده المسلمون ليتوبوا عن ذنوبهم ويدخلوا في سلسلته المباركة، السلسلة الجشتية التي بفضله راجت في الهند رواجا عامّا، حتى ظنَّ البعض أنّه هو مؤسّسها[٣٨].

والدّليل على حرصه الشديد واعتنائه البالغ بنشر الإسلام أنه قد أسلم على يده الشريفة في طريقه من دلهي إلى أجمير سبع مائة من الهندوس[٣٩].

ولهذا اتفق المؤرّخون على أنّ الهند تنوّرت بنور الإسلام بجهود مشايخ الطريقة الجشتية، وعلى رأسهم شيخ الشيوخ نائب رسول الله ﷺ في الهند الخواجه معين الدين الجشتي الأجميري، يقول الشيخ غلام علي آزاد البلغرامي في "مآثر

(٣٨) ينظر: "تاريخ الطرق الصوفية"، صـ: ١٥.

(٣٩) ينظر: "دعوة الإسلام"، ترجمة: عنايت الله، صـ: ١-٣. وبزم صوفية، صـ: ٦٣.

الكرام": "وأول مَن قصد إقليم الهند من أولياء الله، ونشرَ فيها أنوار الشريعة والطريقة هو الشيخ معين الدين الأجميري قُدِّسَ سِرُّهُ، ولا شكّ في أن لمشايخ الطريقة الجشتية حقا قديما على أولياء الهند"(٤٠).

ويكتب صاحب "سير الأقطاب": "ببركات قدومهم الميمون انتشر الإسلام في الهند، وانكشفت عنها ظلمات الكفر"(٤١).

وجاء في كتاب "سير الأولياء": "ولا أدلّ على صدق كرامات الشيخ الأجميري وعلوِّ درجاته من أنَّه قد ارتبط بسلسلته مرشدون جليلو القدر اهتدى بهم عبادُ الله ونجوا من مكر الدنيا وخداعها، ولذلك فسوف يدوي صيت عظمتهم في آذان الأفلاك ..."(٤٢).

وأضاف المؤلّف: "إن شمس الهداية هذه (الشيخ الأجميري) نوّرت الهند بنور الإسلام وسوف يبلغه الأجر والثواب ما بقى الإيمان والإسلام في ذريّة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بفضل دعوته وتربيته وتعليماته"(٤٣).

ويتحدّث أبو الفضل صاحب "آئين اكبرى" عن اتخاذ الشيخ بلدة "أجمير" مقرًّا له، فيقول: "واستقرّ في أجمير، وأشعل شموع الإسلام، فدخل الناسُ في دين الله

---

(٤٠) ينظر: "مآثر الكرام"، تاليف: حسّان الهند المير غلام علي آزاد البلغرامي، المتوفى ١٢٠٠هـ، مطبعة المفيد العام، آغره، ١٩١٠م، صـ: ٦ – ٧.

(٤١) ينظر: "سير الأقطاب"، صـ: ١٠١. و"تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٢٩.

(٤٢) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٤.

(٤٣) ينظر: المصدر نفسه، صـ: ١٠٥.

أفواجا"[٤٤].

ويقول صاحب "مرأة الأسرار": "مَن رَأى وجهَه المبارك آمنَ بوحدانية الحقّ جلّ وعلا وأقرَّ برسالة المصطفى ﷺ، ولما أنّ الشيخ في القوم كالنبي في الأمة، ولهذا استطاع أن يُخرجَ المتورّطين بالشرك في أكناف الهند من متاهات ظلام الشرك إلى نور الإيمان؛ فإنه وارث النبي ﷺ، بل نائبه، فقد سمّى بـ"رسول الهند"[٤٥].

وذكر أيضا أنّ الهند كانت معقل الكفر والشرك، وكان الهندوس في دلهي يكرهون المسلمين شديدا، حتى عدّوا مشاهدة المسلم ذنبا، ولكن الشيخ الخواجة استطاع أن يدخلها ويقيم فيها مع أصحابه يصلّي بالجماعة ويؤدّي أركان الإسلام رغم أنوفهم، مما يغضب الكفار فكانوا يحاولون أن يؤذوه وأصحابه ولكنهم لم يستطيعوا ذلك، بل كلّما رأوا وجهه الكريم استسلموا له[٤٦]، وأمنوا بالله العظيم، ورسوله الكريم ﷺ.

وقد مرّ الشيخ مرة بمعبد هندوسي، وكان سبعة من الكفار يعبدون الأصنام ولكنهم ما أن رأوا وجه الشيخ تأثروا به فتابوا وتشرّفوا بالإسلام، وسمّى الشيخ كلَّ واحد منهم بـ"حميد الدين". والشيخ حميد الدين الدهلوي من أولئك السبعة الذين أسلموا على يده[٤٧].

---

(٤٤) ينظر: "آئين اكبرى"، صـ: ٢٧٠. و"تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٣٠.

(٤٥) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٢.

(٤٦) ينظر: المصدر نفسه، صـ: ٥٩٨.

(٤٧) ينظر: المصدر السابق، صـ: ٥٩٩.

وذكر صاحب "حدائق الحنفية" أن الدين الإسلامي انتشر وراج في الهند بجهوده المباركة، وأسلم الآلاف من الكفار ببركته، ولا تزال سلسلته تفيض على الهند بالخير[٤٨].

ويقول صاحب "نزهة الخواطر": " ...ثم قدم الهند وأقام بمدينة لاهور واعتكف على قبر الهجويري والزنجاني، ثم قدم دهلي، ثم سار إلى أجمير وسكن بها وكانت تحت سلطة الهنود في ذلك الزمان فأسلم على يده خلق كثير"[٤٩].

ولم يكن تسخير بلدة "أجمير" شيا يسيرا؛ إذ إنها كانت حصنا حصينا ومعقلا منيعا للهندوسية، ومركزا سياسيّا، كان يحكمها رجل ذو بأس شديد له نجاحات باهرة في الحروب[٥٠]، ولهذا لم يكن من الإمكان أن يدخلها إلا صاحب الجرأة الإيمانية، والهمّة العالية من أمثال الشيخ الجشتي الذي وقف موقف الرجال الغيارى من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فقد واجه الشيخ الأجميري الملكَ بتهورا قبل أن يغزوه الملك شهاب الدين الغوري، بل الحقيقة أن الغوري لم يتسن له أن يفتح دلهي وأجمير إلا بفضل دعوات الشيخ وجهوده التي بذلها في تمهيد العقبات؛ إذ إن الغوري كان قد حاول فتحَ الهند مرّاتٍ، لكنه لم ينجح إلا حينما رافقتْه دعواتُ الشيخ المستجابة وروحانيته القويّة، يقول المؤرّخ المعاصر للشيخ، القاضي منهاج الدين عثمان الجوزجاني، في "طبقات

(٤٨) ينظر: "حدائق الحنفية"، ٢٧٧ – ٢٧٨.

(٤٩) ينظر: "نزهة الخواطر"، ١/ ٩١.

(٥٠) ينظر: "تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٢٥.

ناصري": "إن الشيخ الخواجه كان مع جيوش الملك شهاب الدين الغوري، الذي أذاقَ حاكمَ "أجمير" طعمَ الهزيمة، وهو الذي تمّ على يده فتحُ الهند، وكان لدعوات الشيخ وتوجهاته ورُوحانيته نصيب كبير في ذلك الفتح"[٥١].

فقد وقف الشيخ في وجه الملك بتهورا جبلا صامدا، بجرأته الإيمانية التي سخرّت تلك القوة الظالمة التي استبدت الناس على مدى قرونٍ، كما استطاعت تلك الجرأة أن تملأ آفاق الهند بالعدل والإحسان، وتيسر لها أن تتعرف على الحضارة الإنسانية، وتدوى سماؤها بكلمة التوحيد.

وقد روي أنه لمّا رأى"راجبوت برتهوي راج" المعروف بـ"راي بتهورا" أن الناس يسلمون على يديه بالكثرة المدهشة، فشقّ عليه ذلك، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ضده خوفا من شعبيته الكبيرة ومكانته المرموقة في قلوب الناس، فلجأ إلى إيذاء مسلمٍ مسكينٍ من مقرّبيه، فلما سمع الشيخ عن أذاه ذهب إليه ملتمسا أن يكفّ عن أذى فقير لم يقترف ذنبا فلم يصغ له الحاكم، بل تمادى في غيّه، وتفوّه بما لا يليق بشأنه، فلما يئس منه الشيخ قال فيه مقولته الشهيرة: "نحن نسلّمه حيًّا إلى معسكر المسلمين". وقد صدقت مقولتُه هذه، بأن المجاهد شهاب الدين الغوري توجّه نحو الهند وخاض معه في معركة تمّ فيها القبض عليه حيا[٥٢].

وذكر الشيخ المحقّق قصة لقتل الملك بتهورا، وهي أن الشيخ وصل إلى أجمير في زمن الملك واشتغل في العبادة، وكان في أجمير إذ اشتكى مسلم من أتباع

(٥١) ينظر: "طبقات ناصري"، ٤٠، و"تاريخ الدعوة والعزيمة"، ٣/ ٢٦.

(٥٢) ينظر: "سير الأولياء"، صـ: ١٠٣ – ١٠٤.

الشيخ أن بتهورا آذاه، فأرسل الشخ متوسلا إليه، فلم يقبل بتهورا ما قاله الشيخ، فلما سمع الشيخ قوله ردّ عليه بأننا أخذناه حيا وسلمناه إلى جيش المسلمين، وقد حدث أن السلطان معز الدين جاء إلى الهند وفتحها، ومنذ ذلك اليوم أصبحت الهند ديارا للإسلام، واستأصلت فيها شجرة الكفر والفساد(٥٣).

وذكر المؤرخ عبد القادر البدايوني: أنّ شهاب الدين الغوري كان في "خراسان"؛ إذ رأى في منامه أنّ الشيخ يُلقِّنه أن يتوجّه إلى الهند، وسيجعله اللهُ ملكًا عليها. وبعد رؤيته هذه اتجه الملك شهاب الدين الغوري إلى الهند، فخاضَ في معركة ضارية، وشاء القدر أن تنهزم جيوش الكفر، ويغلب المسلون، وقد قبض على "بتهورا"، ثم قُتِل(٥٤).

ومهما كان الأمر فإن جهود الشيخ الأجميري حوّلت الهند من ديار الكفر ومعقل الشرك إلى ديار الإسلام والمسلمين، فقد بدأ الإسلام يزحف المدن والقرى وينتشر في أرجاء الهند، وبدأت تنقطع حبال الكفر والشرك في هذا البلد شيئا فشيئا، وأصبحت كلمة الله هي العليا.

إذن لم تكن لهمّة الشيخ السجزي العالية وروحانيته القويّة دورا في فتح أجمير فحسب، بل يرجع إليه الفضل في فتح الهند كلها وترسيخ دعامة الإسلام فيها؛ فلولا إرادته القوية وإيمانه الراسخ وعزمه الثابت مثل الجبال لما رأتِ الهند نورَ الإسلام، ولما انتشر الأمن والسلام، وكانت الهند قد بقيت على عهدها القديم يحرق أهاليها

(٥٣) ينظر: "أخبار الأخيار"، صـ: ٢٨ – ٢٩. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٥٩٩.

(٥٤) ينظر: "منتخب التواريخ"، ١/ ٤٤، و"بزم صوفية"، صـ: ٦٣.

من الهندوس الزوجات مع أزواجهن إذا ماتوا، إلا أن الإسلام هو الذي عمَّ البلادَ فعمَّ الحبُّ والوئام، وسادَ جوُّ الوُدّ والاحترام، وأصبح الناس إخوانا فيما بينهم، كأنّهم أسنان مشط، كما قضي على التمايز العنصري واختلاف الطبقات، ونُبِذ التطرّف وحلّ الاعتدال في الفكر والسلوك، ممّا نهضت الهند حضاريا، وتعرّفت على مظاهر التقدّم في جميع المجالات من العلوم والمعارف والعمران، وكل ذلك بفضل المسلمين الذين وفدوا إليهم بخزائن مادية ومعنوية، لم تكن الهند تراها من قبل.

بل أصبحت الهند مركزا جديدا للإسلام والمسلمين، وبدأت دلهي تهب أن تغدو عاصمةً جديدة للإسلام، وتحلّ محلّ بغداد إذا انتزعت من المسلمين، إذ بدأت العقول العربية الإسلامية النيرة تنتقل إليها من بغداد والمدن الإسلامية فرارا من هجمات التتار، فقد توجّه إليها نخبة، فيهم العلماء والمفكرون والدعاة المتصوّفون الذين إذا وفدوا إلى الهند جاؤوا بعلومهم الشريفة، وأفكارهم النيرة، وثقافاتهم الغزيرة، وأخلاقهم المثالية الفاضلة، وحضارتهم الخالدة النافعة، التي جعلت الهندَ خليفةً لبغداد، ودمشق على مدى سنوات.

وفحوى القول إنّ الشيخ الأجميري قد أدّى دورًا مثاليًّا في إشعال شموع الإسلام في ديارنا هذه، فهو من السّابقين الأوّلين الذين ارتادوا الهند، ناشرين الإسلام ونفحاته في أرجائها، ولكثرة ما أسلم الناس على يد الشيخ الأجميري لقّب بـ"وارث النبي ﷺ في الهند"، كما يلقّب بـ"سلطان الهند" أيضا، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

بَرَكاتِ الصُّوفيّةِ في شبه القارّةِ الهنديّةِ

للأستاذ الدكتور أنوار أحـمد خان البغدادي، صـ١١٥-١٣٣.